الدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب

اتجاهات التفسير في العصر الراهن

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الثالثة ـ منقحة
١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

منشورات مكتبة النهضة الاسلامية
هاتف ٣٣٥٨٤ ـ ص.ب ١٣١٦٣
شارع سقف السيل
عمان ـ الاردن

الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
عمان ـ تلفون ٣٧٧٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً .

والحمد لله الذي له ما في السموات والارض ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وخيرته من خَلقه ، خاتم النبيين ، وأشرف المرسلين .

ورضي الله عن أصحابه الغرّ الميامين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد ، فموضوع هـذا البحث « اتجاهات التفسير في العصر الحديث » . وهو موضوع كنت أشعر منذ أعوام خلت بميل الى معرفة أبعاده والوقوف على المستقيم والمعوَجّ من هذه الاتجاهات .

ولقد كثر المفسرون في عصرنا . وفي كل عام يخرج تفسير للقرآن الكريم ينحو نحواً معيناً ، والمسلم يقرأ في هذا التفسير أو ذاك ، ولا يكاد يتمثـل صورة واضحة لاتجاهات التفسير إلا اذا كان القارىء مستنيراً .

ولهذا كانت الحاجة ماسة الى رصد اتجاهات التفسير في العصر الحديث ،

ودراسة هذه الاتجاهات دراسة عميقة مستنيرة، ومعرفة الأصيل منها، والتنبيه الى الانحراف الذي طرأ على بعضها .

وقد رأيت أن أقسّم هذا البحث الى كتابين ، أدرُس بعض هذه الاتجاهات في الكتاب الأول ، وفي الكتاب الثاني أدرس سائرها .

ورأيت أيضاً أن يكون الجزء الأول من هذا البحث في تمهيد وفصول ثلاثة ، ففي التمهيد كان لا بد لي من أن أتحدث عن أوضاع المسلمين العامة بصورة موجزة منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الربع الأول من القرن العشرين .

والفصل الأول كان دراسة للاتجاه السلفي في التفسير . وهو اتجاه أصيل يمتد من عهد السلف الصالح من المفسرين القدامى رحمهم الله .

ولقد اخترت ثلاثة تفاسير مشهورة تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً إن لم يكن دقيقاً فهو قريب من الدقة . وهذه التفاسير هي : محاسن التأويل للقاسمي ، والتفسير الحديث لمحمد عزّة دَرْوزة ، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب .

ورأيت أن أفرد الفصل الثاني لدراسة اتجاه الشيخ محمد عبده في التفسير . وهو اتجاه عقلي توفيقي يوفق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية .

ولا بد من الحديث عن أولئك الذين ترسموا خطوات محمد عبده في التفسير ، ومنهم : الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وعبد العزيز جاويش ، والشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، وعبد الكريم الخطيب ، ومحمد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان .

ورأيت أنه لا بد من الإشارة الى بعض من تأثروا باتجاه محمد عبده في غير ميدان التفسير ، وهو ميدان الفكر والبحوث الأدبية والإسلامية .

وفي الفصل الثالث كان لا بد من دراسة الاتجاه العلمي في تفسير القرآن

الكريم . وحتى تكون الدراسة شاملة مستوعبة تتبّعت جذوره القديمـــة ، ودرسته في إبّان رواجـــه القوي في العصر الحديث . وكان لا بد من تقديم صورة واضحـــة عن إنكار القدماء ثم المحدَثين لهذا الاتجـــاه ومن تسجيل موقفي منه .

ولا أعلم ، حتى الآن ، أحداً نهض بدراسة هذا الموضوع في بحث خاص قائم برأسه ، مما دفعني الى القيام به .

ويجب عليّ وأنا في هذا المقام أن أذكر الجهد الرائع الذي قام به الأستاذ محمد حسين الذهبي ، ففي الجزء الثالث من كتابه « التفسير والمفسّرون » دراسة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث . فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

ويعـلم الله أنني بذلت الجهـــد ما استطعت ، ولم أقصّر في الرجوع الى المراجع التي توضح هذه الاتجاهات توضيحاً مرضياً .

ولا أزعم أن عملي هذا يخلو من الشوائب والهفوات والثغرات ، فالكمال لله وحده .

وإني لأرجو أن أكون موفقاً في دراسةهذا الموضوع.والله من وراء القصد، وهو وليُّ التوفيق .

عبد المجيد عبد السلام المحتسب

تمهيد

أوضاع المسلمين العامة منذ أوائل القرن التاسع عشر :

سيطرت الدولة العثمانية على معظم العالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي . وفي القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي تم للدولة العثمانية ضم البلاد العربية إليها ، وامتـــد سلطانها امتداداً كبيراً .

ويدخل في نطاق الوحدة السياسية الكبرى للدولة العثمانية شبه جزيرة الأناضول والعراق والشام ومصر والحجاز واليمن وبعض النفوذ على الساحل الشرقي لإفريقيا .

وكانت الدولة العثمانية تعنى بقوة السلطان وتنظيم الجيش وأبهة الحكم والاشتغال بالفتوحات . وقـــد أهملت اللغة العربية مع أنها ضرورية لفهم الإسلام وشرط من شروط الاجتهاد . ولم تُعن بأمر الاسلام من حيث الفكر ومن حيث التشريع ، فانخفض مستواها الفكري والتشريعي .

وبسبب ذلك كانت الدولة قوية قوة ظاهرة ، ولكنها في الحقيقة ضعيفة ضعفاً بيناً بفعل الضعف الفكري والتشريعي . إلا أن هذا الضعف لم تلاحظه الدولة حينئذ لأنها كانت في عنفوان مجدها ، وفي أوج عظمتها ، وفي منتهى قوتها العسكرية [1] .

(١) انظر الدولة الإسلامية ص ١٣٢ .

ولقـــد عاش الشرق الاوسط ، كما يسميه الغرب ، خلال العصر العثماني الأول (نهاية القرن الثامن عشر الميلادي) في عزلة سياسية واقتصاديـــة وحضارية .

فلم يصل الشرق الأوسط عنصر واحـــد من العناصر المكونة للحضارة الغربية والمدنية الغربية التي كانت تسير بخطىً سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر .

وأكد هـــذه العزلة شعور من الشك والريبة في البلاد الإسلامية إزاءَ الفرنجة . وهو شعور نما واستقر منذ الحروب الصليبية [1] .

وبدأ شعور المسلمين بالحاجة إلى النقل عن الغرب في أوائل القرن التاسع عشر حين أحست الدولة العثمانية بالضعف وهي دولة الإسلام الأولى يومذاك أمام دول الغرب الفتية . فأخذ السلطان سليم الثالث في بناء نهضةٍ حربية تقوم على تنظيم الجيش حسب النظم الأوروبية الحديثـــة ، وإنشاء مدارس للحربية والبحرية واستقدام بعض المهندسين والعسكريين من السويد وفرنسا والمجر وإنجلترا للاستعانة بهم في إنشاء الصناعات الحربية ، وتـدريب فرق الجيش على النظم والأسلحة الجديدة وإدارة مدرسة الطوبجية .

وكان انشاء أول فرقة نظامية في الجيش العثماني سنة ١٧٩٦ م . ثم توقفت هذه المحاولة بعض الوقت عقب عزل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧ م ، ولم تستأنف هذه المحاولة الا بعد أن نجح خلَفه السلطان محمود الثاني في القضاء على الانكشارية سنة ١٨٢٦ م

وفي ذلك الوقت أو بعده بقليل كان محمد علي باشا يسلك الطريق نفسه محاولاً بناء نهضة حربية عقب تنصيبه والياً على مصر سنة ١٨٠٥ م ، فأخـذ في انشاء جيش حديث مدرب على النظام الأوروبي ، ودفعه ذلك الى سلسلة

---

(١) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ١٤٠ وما بعدها .

من الإنشاءات في ميادين التعليم والهندسة والطب لسد احتياجات ذلك الجيش الحديث، مستعيناً على ذلك باستخدام ضباط ومهندسين وأطباء من الاوروبيين وبإرسال بعثات من الطلبة الى أوروبا .

ولم تلبث تونس أن اتجهت هـذه الوجهة نفسها حين أحست بحاجتها الى حماية نفسها من النفوذ الأجنبي المتزايد ، فأنشأت جيشاً نظامياً ، وافتتح أحمد باشا باي الأول مدرسة للعلوم الحربية لتخريج ضباط وطنيين لهذا الجيش ، كان يديرها أحد الإيطاليين . وكان يقوم بالتدريس فيها مدرسون من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين ، ثم كان خير الدين باشا أول مدير وطني لها .

وأدخلت أسرة القاجار ، التي حكمت ايران في القرن التاسع عشر ، النظم العسكرية الأوروبية على جيشها وفتحت من أجل ذلك كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢ م تسمى « دار الفنون » قامت على أساس غربي وكان اساتذتها من الأوروبيين [١] .

كان اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هـذه المرحلة محصوراً في الجانب المادي الآلي منها ، ولم يكن يستهدف أصحابه الا وصل المسلمين بأسباب القوة ، لكي يكونوا أنداداً لأعدائهم . فإصلاح الجيش في تركيا جاء عقب هزائمها المتتالية أمام الجيوش الروسية التي أعاد بطرس الأكبر تنظيمها وتسليحها على النمط الاوروبي .

والانشاءات الحربية الجديدة في مصر جاءت عقب هزيمتها أمام جيوش نابليون التي أدهشت المسلمين بفنونها العسكرية الجديدة .

وتنظيم الجيش في تونس وانشاء مدرسة العلوم الحربية جاء عقب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .

وادخال النظم العسكرية الاوروبية في الجيش الايراني جاءت عقب ازدياد الضغط السياسي والاقتصادي من جانب روسيا وبريطانيا .

---

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٢ وما بعدها .

ولكن تسربت مع النظم الحربية الجديـــدة نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الاصلاحات العسكرية الجديدة اصلاحاً في نظم التعليم وفي برامجه، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الاجانب، كما استلزمت ارسال بعوث علمية الى مختلف المعاهد الاوروبية .

على أن بعض الحكام المسلمين كان يعمل على أن تصبح بلاده جزءاً مـــن الغرب ، فالسلطان محمود الثاني الذي قضى على الانكشارية كان يترسم خطى الحضارة الغربية في كل شيء ، فاستبـــدل الطربوش الرومي بالعمامة ، وتزيا بالزي الاوروبي ، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين ، ثم جاء ابنه عبد المجيد فسار على منوال أبيه ، وأصدر عقب توليته المنشور المعروف باسم (فرمان الكلخانة) في سنة ١٢٥٥هـ، ١٨٣٩ م الذي رسم فيه طريق الإصلاح الجديد وبين قواعده وفي مقدمتها الحرية الشخصية ، والحرية الفكرية ، وتسوية غير المسلمين بالمسلمين ، والذي كان بداية للعصر المسمى بعصر التنظيمات . وفيه توالى صدور القوانين واللوائح المقتبسة من الحضارة الغربية ، فأنشئت المصارف ، وتعاقدت الدولة معها على قروض نظير أرباح ، وأدخلت نظُم إصلاحية على السجون (حسب ما تقتضيه الإنسانية والعدالة) ، وسمح لغير المسلمين أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية . ثم صدرت آخر الامر (مجلة الاحكام العدلية) في سنة ١٨٦٩ م ليعمل بهـــا في المحاكم النظامية التي أنشأها السلطان عبد العزيز وقتذاك .

وفي ذلك الوقت كان الخديوي إسماعيل يسير سيرته في إدخال الحضارة الغربية وترسّم خطاها [١] .

وهؤلاء المبعوثون الذين أُرسل أكـــثرهم الى فرنسا كانوا يقرؤون الكتب الفرنسية ، ويشاهدون الحيـاة الفرنسية في أحفل العصور بالصراع الفكري الذي يصحب الثورات ، وكانت فرنسا تعيش في أعقاب الثورة الفرنسية وما

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٤ — ١٦

صاحبها وتلاها من قلق فكري لم يبلغ نهاية مداه . وقد احتل هؤلاء المبعوثون من بعدُ مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين وبدؤوا يترجمون منذ سنة ١٨٣٠ م وينشرون كتباً في غير ما تخصصوا فيه من فنون . ومع المعلمين الذين استقدمهم محمد علي باشا للمدارس ، ومع الفرنسيين منهم بخاصة ، جاءت أفكار فولتير وروسّو ومونتسيكو الذين وُجدت مؤلفاتهم في مكتبة احدى المدارس المصرية في سنة ١٨١٦ م . ولم يكن في تقدير محمد علي أن يتعلم مبعوثوه أكثر من الخبرات التي بعثوا لتحصيلها في تنظيم الجيش والرقي بالصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الاداري .

وتأثُر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها .

ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثل في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين ، أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ – ١٨٣١) وهو رفاعة الطهطاوي ، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات من (١٨٥٢ – ١٨٥٦) وهو خير الدين التونسي .

وترجع أهمية هذين الرجلين الى أنهما بكتاباتهما وآرائهما قد جلبا هذه البذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية .

للمرة الأولى نجد في ديار الإسلام كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض ، يراد اتخاذها وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكوّنا وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين وللمرّة الأولى نجدُ اهتماماً بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد . وللمرة الأولى نجدُ عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها حجر الزاوية في نهضة أية

أمـــة وفي تقدمها . ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدونة فقهية واضحة محدودة في صورة مواد قانونية على نمط المدونات القانونية الأوروبية .

ولأول مرة تُنقل إلى المسلمين النظريات الثورية التي تريـــد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات ، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق.

ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات ، عرضاً يبدو مجرداً من التعليق في بعض الأحيـــان ، ومشوباً بالإعجاب والتساؤل عن امكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى .

ونرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عن المرأة ، لا شك أنه من وحي الحيـاة الاجتماعية الأوروبية مثل تعليم الفتيات ، وتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين . وهذه الموضوعات والافكار تبدو في كتب الطهطاوي « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » و « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين للبنات والبنين ». وفي كتاب خير الدين التونسي . « أقوى المسالك في معرفة أحوال الممالك » [1] .

ثم كان الغزو الثقافي من الغرب لبـلاد المسلمين يحمل حضـارة تناقض حضارة الإسلام ، ويوهم المسلمين أنه أخذها منهم ، ويأتيهم بأنظمة تناقض نظام الإسلام ويوهم المسلمين أنها تتفق مع أحكام الإسلام .

وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثير من البلاد الإسلامية . وانضمت حركة الاستشراق مـع حركة التبشير لتكونا معول هدم للاسـلام وتنصير المسلمين . وقد أدرك المبشرون والمستشرقون استحالة ارتداد المسلم عن دينه ، فقد رسموا خططهم وبنوا آمالهم على زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه بدينه ، وخلق فجوة بين المسلمين وأصولهم العريقة ، فيسهل بذلك القضاء على كيانهم الإسلامي الشامخ [2] .

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية ؛ ص ١٩ وما بعدها .

(٢) انظر جذور البلاء : ص ٢٠٥ .

والمعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية . حتى أن البروتستانت مثلاً لا يكتفون بأن يظل المسيحي أرثوذكسياً ، بل يجب أن يصبح مسيحياً بروتستنتياً . إن هوى الكاثوليك مع فرنسا ، وهوى الأرثوذكس مع روسيا، فإذا انتقل هذان الى البروتستنتية أصبح هواهما مع أمريكا في الدرجة الأولى ومع إنجلترا في الدرجة الثانية [١] .

وانسجمت الخطط الأستعمارية في الحرب ضد الإسلام وديار الاسلام مع قوى التبشير الكاثوليكي بقيادة الكرسي البابوي في روما ، وقوى التبشير البروتستنتي بقيادة اليهودية العالمية وتوجيهها . البروتستانت يسخرون أنفسهم ونشاطهم لخدمة اليهود – وقد شنّوا حملة مركزة على الإسلام بقيادة جريدة (راية صهيون) التابعة لطائفة الإنجليكان البروتستانت [٢] .

وكان قيام ابراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليم الابتدائي في سوريا – مستوحى من برنامج التعليم الموجود في مصر المأخوذ عن برامج التعليم في فرنسا – فرصة لهؤلاء المبشرين، فاغتنموها وساهموا في الحركة التعليمية من وجهة النظر التبشيرية . وكان محمد علي يقف من الإرساليات التبشيرية موقفاً متسامحاً . ومن الجدير ذكره أن محمد علي باشا كان ماسونياً .

وهكذا انتهز المبشرون هذه الفرصة السانحة ووضعوا أساس ما دعوه كنيسة صهيون أول كنيسة بروتستانتية في الدولة العثمانية . ولكن فأل المبشرين قد خاب ، فإن محمد علي انسحب عام ١٨٤٠ من الشام ، فعاد الاتراك الى موقفهم الشديد من الإرساليات التبشيرية .

وكانت الدولة العثمانية ترتاب في حركات التبشير ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش الى كل مكان . وكانت الدولة ترتاب بالمبشرين البروتستانت خاصة ،

(١) أنظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية : ص ٤٥ .
(٢) أنظر جذور البلاء : ص ٢٠٤ .

لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأكثر ، أو يتوارون وراء العلم الأمريكي ، وبالمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . وهكذا أصبح التبشير بين المسلمين في الدولة العثمانية كلها مستحيلا للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة على المبشرين . ولذلك كان المبشرون كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا الى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الظاهر أيضاً .

وقد استطاع المبشرون بنشاطهم هذا أن يوغروا الصدور بين رعايا الدولة الإسلامية باسم الحرية الدينية . وأوجدوا بين المسلمين والنصارى والدروز نشاطاً دينياً يتصل بالعقيدة . وحين انسحب ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ م من بلاد الشام انتشر القلق والاضطراب فيها ، واغتنم الموفودون الاجانب لا سيما رجال البعثات التبشيرية ضعف نفوذ الدولة العثمانية في البلاد ، وحينئذ أخذوا يشعلون نار الفتنة ، وما مر عام واحد وحلت سنة ١٨٤١ م حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها ، حتى اضطرت الدولة العثمانية بضغط من الدول الاوروبية الى وضع نظام يقسم لبنان الى قسمين، يسود النصارى في قسم منه، والدروز في القسم الآخر[1].

وكانت سوريا ميداناً للسباق بين البروتستانت الاميركيين وبين اليسوعيين ذوي اللون الفرنسي . ويظهر أن اليسوعيين بدأوا يتسربون الى سوريا منذ القرن الثامن عشر حينما أنشأوا مدرسة عينطورة في مقاطعة كسروان في جبل لبنان في عام ١٧٣٤ م ثم تخلوا عنها للرهبان اللعازريين .

وكذلك كان للمبشرين غاية أخرى من التعليم العالي ، هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشىء في بلاد المسلمين .

وعلى هذا الاساس أوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام

(١) انظر كتاب الدولة الاسلامية : ص ١٤٣ .

١٨٦٢م وجعلوا على رأسها المبشر دانيال بلس،هذه الكلية أصبحت فيما بعد: الكلية السورية الإنجيلية ، ثم هي الجامعة الامريكية في بيروت . ولم يكتفوا ببيروت ، بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها الى جانب الجامع الازهر. وهكذا اصبح للمبشرين الامريكيين الكلية الامريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول أيضاً .

ولم يكن رأي المبشرين الفرنسيين مخالفاً لذلك ، فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور ، وهي مدينة من المدن الإسلامية الكبرى في الهند وعاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم .

ثم أقام اليسوعيون جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت [١] .

وروسيا القيصرية تنبهت إلى أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية ، فأرادت اولا أن تسيطر على البطاركة والأساقفة الأرثوذكس وتتخذهم وسيلة إلى تحقيق أطماعها السياسية في الدولة العثمانية . وهكذا أخذ الروس يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الأبنية ويتدخلون ساعة يستطيعون في الأمور الدينية والسياسية .

وجدير بالملاحظة أن اليهود كانوا وراء حركة الاستشراق والتبشير . فصموئيل زويمر الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنو في أقصى الشرق ، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاماً انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢ م ، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه ، وذلك بأن طلب حاخاماً يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره ، وبهذا الصدد يقول الأستاذ عبد الله التل : « أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل ، ولا تبوح به ، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية ،وحتى

---

(١) انظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية : ص ٧٩ ، ٨٠ ، ١١١ .

لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثاً ، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية » [1].

وليس من قبيل المصادفة أن نجد أكبر المستشرقين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو اليهودي جولدتسهر الذي كرس حياته للطعن في الإسلام ونبي الإسلام وقرآن الإسلام بأسلوب علمي مقنّع تنبعث منه أحقاد اليهود ومكرهم وخبثهم [2] .

وكان معظم الجمعيات التبشرية إنجليزية وفرنسية وأمريكية. فتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها ، وأصبحت هذه الجمعيات مع الزمن هي الموجهة للحركات القومية . وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين أو توجيه القومية العربية والقومية التركية الطورانية لغرضين رئيسيين :

الاول: فصل العرب عن الدولة العثمانية المسلمة للإجهاز على دولة الإسلام ، وأطلقوا عليها اسم تركيا لإثارة النعرة العنصرية .

والثاني : ابعاد المسلمين عن الرابطة الحقيقية التي لم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام . وقد انتهوا من الغرض الاول ، وبقي الثاني قائماً . ولذلك سيظل التوجيه الى القومية عند الترك والعرب والفرس وغيرهم هو الإسفين الذي يفرق وحدة المسلمين ويعميهم عن مبدئهم [3].

وفي هذه الاثناء اتخذت أعمال التبشير مظهراً آخر لم يكن موجوداً من قبل، فلم يكتفوا بحركة المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات ، بل تعدوا ذلك الى تأسيس الجمعيات تحت رعاية الإرسالية الامريكية ، في سنة ١٨٤٧ م أسست جمعية الفنون والعلوم ، وكان أعضاؤها ناصيف اليازجي وبطرس

(١) جذور البلاء : ص ٢٢٨ .
(٢) انظر جذور البلاء : ص ١٩٨ .
(٣) انظر الدولة الاسلامية : ص ١٣٩ وما بعدها .

البستاني من نصارى لبنان . ولم يدخل في الجمعية من المسلمين ولا من الدروز أي عضو مطلقاً . وماتت الجمعية بعد خمس سنوات مـــن تأسيسها . واسس اليسوعيون الجمعية الشرقية تحت رعاية الاب اليسوعي الفرنسي هنري دوبرونير ، وكان أعضاؤها كلهم من النصارى ولكنها لم تعش طويلاً . ثم الجمعية العلمية السورية ، ظهرت بالمظهر العربي واستبعد دخول الاجانب فيها . وقد دخلها بعض المسلمين مثل حسين بيهم ، ومن الدروز محمد ارسلان ، وانضم اليها من كل طائفة من نصارى العرب . وكان من برنامجها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية في النفوس . ثم تألفت في بيروت الجمعية السرية ، فأخـــذت تبعث فكرة القومية العربية . وقام بتأسيسها خمسة من النصارى من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت وكانت تدعو للقومية العربيـــة والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها التركية [1] .

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن جل الجمعيات السرية في العالم تدار من قبل اليهودية العالمية — فاليهود وحدهم هم الذين يعملون في الظلام متسترين . وباغي الخير لا يحتاج الى التستر والتخفي والسرّية . وهذا واضح في الحركة الماسونية التي هي جمعية سرية أو جهـــاز ضخم لخدمة اليهودية العالمية .

ونستطيع أن نقول إن الإسلام قد انحسر خلال عصور الانحطاط الفكري عن الساحة العامة ، وحالت بين مفاهيمه الاجتماعية السامية ومعالمه الرئيسية وبين الأمة حواجز كثيفة من الجهل والتشويه والشوائب الغريبة عنه ، وتقلص في نفوس المسلمين وضَمُر حتى عاد ديناً بالمعنى الأوروبي أي مجموعة عقائد تتعلق بما وراء هذه الدنيا ومجموع شعائر تعبدية . وهـذا ما يسمى بفصل الدين عن الحياة . وبهذا الصدد يقول الدكتور محمد البهيّ :

« وقد نشأ في التفكير الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتجاهان : أحدهما لمهألأة الاستعمار الغربي في تقريب الاسلام من المسيحية أو

---

(١) أنظر الدولة الاسلامية : ص ١٤٥ وما بعدها .

في تبديله الى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر (حركة السيد أحمد خان في الهند التي سماها تجديداً ، وحركة ميرزا غلام أحمد) .

والثاني لمقاومة هذا التقريب أو هـــذا التبديل مع الدعوة الى احتفاظ المسلمين بإسلامهم كما يصوره القرآن والسنة والى اعادة تماسك الجماعة الاسلامية والسعي الى استقلالها وعدم انصهار المسلمين في غيرهم. وبانتهاء القرن التاسع عشر ثم تبلور هذين الاتجاهين ، وعُرفت أسسها في العالم الاسلامي وأصبح لكل منهما أتباع وأنصار [1]» .

وأود أن أنبه إلى نقطتين :

الأولى : قول الدكتور محمد البهي : « في تقريب الإسلام من المسيحية » . فالتعبير الدقيق كما أراه يجب أن يكون، « التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية » لأن النصرانية في ذاتها ليست نظاماً شاملاً يحدد علاقات الإنسان بربه وبنفسه وبغيره من البشر . وهي دعوة إلى التسامح وفعل الخير والمحبة . وقد نسخ القرآن الأديان السابقة. والحضارة الغربية تقوم على الفكر الرأسمالي الذي يقوم بدوره على فكرة فصل الدين عن الحياة .

والثانية : إن محمـــد عبده وتلاميذه في مصر من أولئك الذين قاموا بالتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . وسنعرض لهذه النقطة بالذات في موضع من هذا البحث .

وجدير بالذكر أن الغرب الصليبي أدرك عن خبرة وتجربة أنه اذا قامت دولة قوية في الشرق الأدنى والأوسط فمعناه التوسع الى الغرب لنشر الاسلام وازالة الحواجز التي تقف أمامه، عرفوا ذلك في فتح الأندلس ومعركة بلاط الشهداء ، وفي فتح صقلية وغيرها ، وعرفوا ذلك في أيام الدولة العثمانيـــة في عهد محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية ، وحين استولت الدولة على البلقان

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٤ وما بعدها .

والجزء الجنوبي الشرقي منهـــا مما أثار الرعب في جميع دول اوروبا من الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية . وصار مستقراً عند الجميع أن الجيش الاسلامي لا يُقهر ، وأنه لا قِبل لأحد بمواجهـــة المسلمين . وظهرت المسألة الشرقيـة للوجود . وكان معناها حينئذ اتقاء الخطر من زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ومن خلفه من السلاطين ، ذلك الزحف الذي استمر الى أواخر القرن الحـــادي عشر الهجري على يد سليمان القانوني ، وتركز تركزاً قوياً حتى أواسط القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي .

وكان النفوذ الأوروبي السياسي في الشرق الاوسط والهند في أوائل القرن الثامن عشر لا يزال ضئيلاً ، فقد كانت الدولة العثمانية والفارسيـــة والمغولية لا تزال على جانب يذكر من القوة . ومع أن دول أوروبا الغربية كانت قـد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم الصناعي وسبقت الشرق الراكد في ميدان المهارة الفنية وجودة المنتجات الصناعيـة فإن تجارها في هذه الأصقاع كانوا لا يزالون يعيشون في كنف حكامها وموظفيها الشرقيين ورعايتهم .

فلما ظهرت آثار الانقلاب الصناعي الذي ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر وظهرت الاختراعات المتعددة كان لذلك في مجموعه الأثر الفعال في تقوية أوروبا وفي تقدمها الفكري والمادي . فتغير مفهوم المسألة الشرقية ، فلم تعد مسألة اتقاء الأخطار الإسلامية على أوروبا ، وإنمـا صارت الإبقاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها حيث اختلفت عليها الدول تبعاً لاختلافها في المصلحة [1].

وكان الحكام في الدولة العثمانية يحتقرون الأوروبيين المقيمين بينهم ، وبهذا الصدد يقول جورج كيرك : « وهم ، حكام الدولة العثمانية ، لا يزالون يعتبرون الأجانب من الأوروبيين المقيمين بينهم دونهم بمراحل لا تقدّر . وحتى في عام ١٨٣٠ م تُرك أحد السفراء الأجانب جالساً على مقعـد بفناء القصر السلطاني

---

(١) أنظر الدولة الاسلامية : ص ١٣٣ — ١٣٥ .

ينتظر تفضّل كبير الوزراء بالإذن في المقابلة ، وأخيراً سمح له بالمثول بين يدي السلطان على أنه المتبربر الجائع العاري الذي اجترأ على التمسح بجبهته في الباب العالي » (١) .

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٨) واجهت الدولة خطراً داخلياً يتمثل في ظهور الحركات القومية وبالذات حركة الاتحاد والترقي، وهي التي يسمونها حركة الاحرار في تركيا الذين كان من رأيهم أن الأمل الوحيد في إنقاذ الدولة العثمانية هو إصلاح نظام الحكم فيها وذلك بتزويد الدولة بدستور على غرار دساتير الدول الأوروبية الحديثة . وكان زعيم هذه الحركة مدحت باشا الذي يسمى أبا الأتراك الأحرار .

ونجحت الحركة بادىء الأمر بوضع دستور ، ولكن السلطان عبد الحميد قضى على الدستور وتمسك بحقوق الخلافة ، فقامت ثورة سنة ١٩٠٨ م بقيادة ما يسمون الاحرار في تركيا وخلع السلطان عبد الحميد الثاني وصدر الدستور العثماني وتولى حزب الاتحاد والترقي الحكم .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد اتخذت من (سالونيك) مركزاً لها . وكانت (سالونيك) –مقدونيا– في ذلك الوقت ذات طابع عالمي يختلف عن أية بلدة من بلدان الدولة العثمانية . وكان نصف سكانها من اليهود الذين هاجروا من الأندلس (اسبانيا اليوم) ليجدوا التسامح الديني في رحاب الإسلام . وكان الكثير منهم قد أعتنق الإسلام في القرن السابع عشر . كما كانت سالونيك أكثر اتصالاً بالعالم الأوروبي من بقية الولايات العثمانية الاسيوية منها والاوروبية . وفي سالونيك ولد مصطفى كمال «أتاتورك» وفي سالونيك كان الجيش العثماني الثالث (٢) . فأنت ترى أثر اليهود (يهود الدونمة) في تهيئة الأسباب للقضاء على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه ثم

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط : ص ١٠٦

(٢) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ٢٥٤ .

القضاء على الخلافة الإسلامية ليتسنى لهم فيما بعـــد إقامة دولتهم في فلسطين أرض الإسلام المباركة .

ومن الأدلة القوية التي تدعم ما نذهب إليه أن المحامي اليهودي « عمانويل قراصّوه » كان أحد قادة الحركة الماسونية في سالونيك وفي مقدمة الوفـــد الرباعي الذي تقدم إلى قصر « يلدز » ليبلغ السلطان عبد الحميد الثاني نبأ عزله وذلك عندما استخلص الاتحاديون من شيخ الاسلام في أستانبول فتوى بخلع السلطان عبد الحميد .

هذا المحامي اليهودي « قراصّوه » كان قـد طرده السلطان عبد الحميد من قصر «يلدز» قبل خلعه بسنة واحدة عندما طلب من السلطان بعض الامتيازات لليهود في فلسطين. وقراصّوه هذا كان من حزب الاتحاد والترقي . ومما يملأ النفس أســـى وحســـرة جهل المسلمين وانحطاطهم الفكري لسكوتهم عـــن جرائم الاتحاديين وخيانتهم بخلع الخليفة المفترى عليه ونفيه إلى «سالونيك» معقل يهود الدونمة ومحافل الماسون . والسلطان عبد الحميد الثاني من أعظم سلاطين بني عثمان المتأخرين . وكان صاحب دهاء عبقري مع إخلاص للمسلمين وسهر على رعاية شؤونهم . فخلعه الاتحاديون لمـــا أن رأوه حجر عثرة في سبيل أطماعهم . وكتب تاريخه أعداؤه في تركيا وخارجها . ولم ينصفه إلا القليل من المفكرين والمؤرخين . وألصقوا به التهم كما فعلوا بعدنان مندريس الذي أمر بإعادة رفع الأذان بالعربية بعد أن أجبرهم أتاتورك على رفعـــه بالتركية. وفي الوقت الذي يُمنع التركي من شتم أتاتورك أو نقده لأنـــه مؤسس الجمهورية التركية الحديثة ويكون عقابه الاعدام إذا فعل ذلك ، يفسح المجال إلى أبعد حد لكيل التهم للسلطان العظيم عبد الحميد، طيب الله ثراه . ولولا ضيق المقام وظروف البحث لأظهرت خصال الرجل الحميـــدة وحرصه على مصلحة المسلمين .

ويحاول الدكتور محمد أنيس ، عبثاً ، أن يلغي العلاقة القائمة بين اليهودية